المبحث الرابع

التصريف

لغة:

صرف الشيء اعمله في غير وجهه كانه يصرفه عن وجه إلى وجه، قال تعالى: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ [1] أي نبينها في صور مختلفة للموعظة والتبصر، وقال أيضاً: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ [2] أي لم نجعله ضربا واحدا وانما على ضروب متعددة، وقوله: ﴿ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [3] أي تغييرها وتحويلها، والصرف: التقلب والحيلة، والصرف: التوبة، وصرف الدهر حدثانه ونوائبه[4].

فالتصريف هو التغيير والتقليب من حالة إلى اخرى وهو مصدر (صرف) للمبالغة والكثرة.

التصريف اصطلاحا:

هو العلم الذي يتناول دراسة احوال البنية التي ليست باعراب وهي طرق اشتقاق الكلمة العربية بالمعنى الواسع والذي يضم أيضاً معرفة معاني الصيغ[5].

وفي ضوء ذلك يشكل التصريف جزءا مهما من دراسة بلاغة البناء الصوتي، ذلك ان المنهج القويم في الدراسة اللغوية هو الذي يربط بين فروع علم اللغة، إذ لايمكن دراسة بنية الكلمة وما يحدث فيها من تغيير وتقليب، وتاثر وتاثير دون دراسة اصواتها ومقاطعها لأن التغييرات التي تتعرض لها بنية الكلمة تنشا عن تفاعل عناصرها الصوتية في الميدان العلمي والممارسة الكلامية[6]. فالارتباط وثيق بين الصوت والبنية الصرفية، وتسهم القوانين الصوتية في توضيح التغيرات التي تجري في بنية الكلمة من اجل تحقيق الانسجام الصوتي في اللفظ والكلام[7].

---

(1) سورة الانعام: من 46.
(2) سورة الاسراء: من 41.
(3) سورة البقرة: من 164.
(4) =: ل: 189/9 - 190 مادة (صرف).
(5) =: الصرف الواضح، عبد الجبار النايلة / 20، المنهج الصوتي للبنية العربية /24.
(6) =: المنهج الصوتي للبنية العربية /25.
(7) =: المصطلح الصوتي عند علماء العربية /132.

التصريف عند السابقين للرماني:

يركز الكتاب في تناول التصريف قبل الرماني على مايجده عند السابقين من حديث عن التصريف بقسميه اللذين اوردهما الرماني، فالاول يتعلق بالاشتقاق، والثاني بالتكرار، وسيفصل القول فيهما ان شاء الله.

ولاشك ان الحديث عن التصريف لايبتعد كثيرا عن الاشتقاق، وقد أكّد ذلك ابن جني حيث قال ((ان بين التصريف والاشتقاق نسبا قريبا، واتصالا شديدا،.... إلاّ ان التصريف وسيطه بين النحو واللغة يتجاذبانه، والاشتقاق اقعد في اللغة من التصريف، كما ان التصريف اقرب إلى النحو من الاشتقاق يدلك على ذلك انك لاتكاد تجد كتابا في النحو إلاّ والتصريف في اخره، والاشتقاق إنما يمر بك في كتب النحو منه الفاظ مشردة لايكاد يعقد لها باب))[1].

وقد تناول العلماء قديما التصريف والاشتقاق والفوا فيهما بعض كتبهم، ولعل من ابرز الاسباب الداعية إلى التأليف في الاشتقاق في تلك الحقبة انه ((كان من مطاعن الشعوبية في ذلك الوقت، على اللسان العربي اتخاذ العرب اسماء لا اصل لها في لغتهم))[2]، وقد اجملت بعض المصادر[3] ذكر هولاء العلماء، لذلك لم يشأ الكتاب الاطالة عما كتب في تلك الحقبة عن التصريف أو الاشتقاق،لاسيما ان ذلك لم يقترن عندهم بموضوع الإعجاز البلاغي.

تحدث الجاحظ عن التكرار، والذي يمثل النوع الثاني من التصريف عند الرماني إذ قال: ((وجملة القول في الترداد، انه ليس فيه حد ينتها إليه، ولا يؤتا على وصفه،وانما ذلك على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوام والخواص، وقد راينا الله ﷻ ردد ذكر قصة موسى وهود، وهارون وشعيب، وابراهيم ولوط، وعاد وثمود، وكذلك ذكر الجنة والنار وامورا كثيرة، لانه خاطب جميع الامم من العرب واصناف العجم، واكثرهم غبي غافل اومعاند مشغول الفكر ساهي القلب))[4].

(1) المنصف: 1/3-4.
(2) اشتقاق الاسماء، للاصمعي / 40.
(3) منها: الاشتقاق لابن دريد، مقدمة المحقق / 28 - 29، اشتقاق الاسماء /46-52، اشتقاق اسماء الله / 480، المزهر في علوم اللغة وانواعها: 1/351.
(4) البيان والتبيين: 1/105.

وعقد ابن وهب بابا للاشتقاق، تحدث فيه عما يقترب من النوع الاول من التصريف عند الرماني، يقول ((وهو مااشتق لبعض الافعال من بعض كما يشتق من الزيادة اسم (زيد) و(زياد) و (مزيد) و(يزيد)، وهو ماخوذ من شقك الثوب أو الخشبة، فيكون كل جزء منهما مناسبا لصاحبه في المادة والصورة))[1].

وتحدث ابن قتيبة عن مثل ذلك فقال ((وقد يكتنف الشي معان فيشتق لكل معنى منها اسم من اسم ذلك الشي، كاشتقاقهم من البطن للخميص (مبطن) وللعظيم البطن إذا كان خلقة (بطين) فاذا كان من كثرة الاكل قيل (مبطان) وللمنهوم (بطن) وللعليل البطن (مبطون)))[2]، ويكثر ابن قتيبة من الامثلة للالفاظ التي تعود إلى اصل واحد، ويتحدث عن ذلك في موضع آخر فيقول: ((وكذلك اكثر هذه الحروف إذا انت رجعت إلى اصولها وجدتها من موضع واحد، وفرق بين مصادرها وبين بعض افاعيلها ليكون لكل معنى غير لفظ
الآخر))[3]، أمّا عن التكرار فيقول: ((واما تكرار المعنى بلفظين مختلفين فلا شباع المعنى والاتساع في الالفاظ))[4].

ويذكر قدامة ان من ابواب البلاغة واحسنها ((اشتقاق لفظ من لفظ، كقوله (العذر مع التعذر واجب) و (لاترى الجاهل إلاّ مفرطا أو مفرطا)))[5]، ولا يبتعد ذلك عما اورده الرماني في باب التجانس أيضاً، ويؤكد قدامة ذلك في موضع آخر إذ يقول: ((وانما يذهبون في هذا الباب إلى المقاربة بين الكلام بما يشبه بعضه بعضا))[6]، وقد كان حديث قدامة عن السجع والترصيع، ولاشك ان هذا من القرآن بعيد.

وتحدث ابو علي الفارسي عن التصريف إذ قال: ((كلام العرب بعضه ماخوذ من بعض، فقد يكون الاصل واحدا ثم يخالف الابنية))[7].

(1) البرهان في وجوه البيان / 123.
(2) تأويل مشكل القرآن /17.
(3) ادب الكاتب / 262.
(4) تأويل مشكل القرآن / 240.
(5) جواهر الالفاظ / 4.
(6) نقد الشعر / 50.
(7) الحجة في علل القراءات السبع : 9/1.

وهكذا لم نجد من بين السابقين للرماني من يطلق مصطلح التصريف على تكرار الموضوع الواحد أو المعنى الواحد بالفاظ مختلفة اوتراكيب مختلفة كتكرار قصة موسى في اكثر من سورة.

التصريف في منظور الرماني:

بعد حديثه عن التلاؤم والفواصل والتجانس، يورد الرماني باب التصريف، ولاشك ان هذا التسلسل يدل على منهجية دقيقة مقصودة لاسيما إذا مانظرنا إلى اقتران الاستعارة بالتشبيه عنده وهما من علم البيان.

ان باب التصريف عند الرماني جاء موجزا خاليا من الشواهد القرآنية، كما كان ذلك في التلاؤم والتضمين، ولعل السبب هو السعة التي يمكن ان يكون عليها الحديث في هذه الابواب الثلاثة، فالقران كله متلائم، ولا تخلو كل آية من تضمين، وتصريف المعاني باب واسع لاتحده حدود، لذلك يكتفي الرماني في هذه الابواب الثلاثة بالاشارات الموجزة التي تاتي مفاتيح لابواب واسعة من الكتاب في الإعجاز البلاغي.

اقسام التصريف عنده:

يقسم التصريف عند الرماني على قسمين:

القسم الاول: تصريف المعنى في المعاني المختلفة:

يبدا الرماني حديثة في هذا القسم بالقول: ((فتصريف المعنى في المعاني كتصريف الاصل في الاشتقاق في المعاني المختلفة، وهو عقدها به على جهة المعاقبة، كتصريف الملك في معاني الصفات، فصرف في معنى مالك وملك، وذي الملكوت، والمليك، وفي معنى التمليك، والتمالك، والاملاك، والتملك، والمملوك))[1]، كما يذكر تصريفا لمادة اخرى وهي مادة (عرض) ويورد لذلك صيغا مختلفة اشتقت من هذه المادة وكلها بمعنى الظهور[2].

فالقسم الاول من التصريف عنده، هو عودة الصيغ المتعددة إلى اصل واحد، يقابل ذلك تعدد هذه المعاني التي صرفت إليها المادة الواحدة ولكنها تنعقد بمعنى واحد يربطها جميعا. وهذا النوع هو الذي يبحثه العلماء تحت موضوع الاشتقاق الذي يقسمونه إلى

(1) ر / 101.
(2) =: ر / 101.

اشتقاق اكبر واشتقاق اصغر. ولقد اختار الرماني تسمية (التصريف) لتكون شاملة لهذا القسم والقسم الذي يليه وهو ما يتعلق بتكرار القصة الواحدة في القرآن الكريم في اكثر من موضع والذي قال عنه ((تصريف المعنى في الدلالات المختلفة))[1] فضلا عن ان مصطلح التصريف لم يكن غريبا عما اورده الرماني لاسيما في القسم الاول إذ قد عرف هذا المصطلح عند السابقين له لاسيما النحاة.

ويبقى السوال: ماعلاقة القسم الاول من التصريف عنده بالاعجاز البلاغي؟

لقد ادرك الرماني لن التعبير القرآني في نظمه المعجز ضم كثيرا من الالفاظ المشتقة بعضها من بعض، والتي تؤدي في كثير من صيغها المختلفة دلالات متعددة على الرغم من عودتها إلى اصل واحد، ومن هنا كان التصريف وجها من وجوه الإعجاز البلاغي، إذ تحدى الله العرب وهم اهل الفصاحة والبيان ان ياتوا بسورة من مثله، وقد ضم القرآن الكريم الفاظهم التي يتحدثون بها، بكل صيغها واشتقافاتها المختلفة، ولكن كل صيغة جاءت في موضعها الذي لايمكن ان تعوض عنها فيه صيغة اخرى، على الرغم من عودة هذه الصيغ إلى اصل واحد في اللغة وادائها معنى واحدا يكون عاما، ولكل منها معنى خاص في موضعها الذي جاءت فيه.

ومن هنا يمكن القول ان الرماني قد فتح بابا واسعا باشارته هذه، يمكن ان يتناول الدارسون فيه كل مادة لغوية واشتقاقاتها المختلفة من (فعل وفاعل واسم فاعل واسم مفعول وصفة مشبهة وصيغة مبالغة وانواع الجموع) وغير ذلك، وتقترن مثل هذه الدراسات الصرفية بالدراسة الدلالية، والكشف عن الدلالات التي تؤديها كل صيغة واشتقاقاتها، لاسيما وانه أشار إلى ان التصريف هو تصريف (المعنى)، ولا شك ان مثل هذه الدراسات تكشف عن جوانب اخرى من الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم.

نتدبر بعد ذلك ايات من الذكر الحكيم، في صيغها المختلفة لنستشف جانبا من هذا الوجه المعجز من اوجه الإعجاز البلاغي.

قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ [2].

(1) ر / 101.
(2) سورة يونس: من 2.

وقال أيضاً: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [1].

وقال أيضاً: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [2].

فمادة (عجب) صرفت إلى صيغ ثلاث هي (عجبا، عجاب، عجيب)، فلما كان الامر المتعجب منه في سورة ص مما لم تدركه عقولهم التي حجب الضلال عنها نور الهداية والرحمة، جاءت صيغة التعجب مناسبة لدهشتهم من دعوة الرسول ﷺ الذي دعاهم ان يقولوا ويومنوا بان (لا اله إلاّ الله) وقد كانت الهتهم متعددة، ولم يالفوا مثل هذا الامر من قبل، فاطلقوا تعجبهم بصيغة (فعال) والتي تدل على غاية التعجب وقوته إذ ان ((فعالا ابلغ من فعيل واقوى وذلك لأن مدة الالف اطول من مدة الياء وان فتح الفم بالالف اوسع من فتحه بالياء))[3] فتتناسب حركة الفم أيضاً مع ماارادوا التعبير عنه.

وحين كان الامر المتعجب منه في سورة ق مما قد عرفوه وهو ان الرسل الذين بعثهم الله إلى الامم من قبل كانوا من تلك الامم أيضاً، جاء تعجبهم بصيغة (فعيل) متناسبا في قوته مع تعجبهم بهذا الامر، فالعجب في آية سورة ص كان اكثر قوة مما في آية سورة ق، يعزز ذلك افتتاح الآية بالاستفهام الانكاري وتاكيده بان واللام والعدول من (عجيب) إلى (عجاب) لأن المشركين يظهرون عجبهم من توحيد الالهة بهذه الصيغة ذلك انهم منغمسون في الشرك، فبالغوا في اظهار ذلك، إذ بين العجيب والعجاب فرق، فاما العجيب فالعجب يكون مثله واما العجاب فالذي تجاوز حد العجيب[4].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [5]

وقوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [6]

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [7]

فصيغة (فعيل) تدل على الثبوت[8]، فالله تعالى (عليم) في كل زمان ومكان مع سعة العلم وعظمته المطلقة، وقد جاءت هذه الصيغة مناسبة للسياق الواردة فيه وهو قوله تعالى:

---

(1) سورة ص: 5.
(2) سورة ق: 2.
(3) معاني الابنية في العربية / 28.
(4) =: مقاييس اللغة: 243/4 -244 مادة (عجب) .
(5) سورة البقرة: من 29.
(6) سورة الانعام: من 73.
(7) سورة المائدة: من 109.
(8) معاني الابنية في العربية /98.

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1]، ويعمد التعبير القرآني إلى صيغة اخرى وهي (عالم) إذ ان السياق هو حديث عن القدرة العظيمة للخالق وعن يوم القيامة وما يدخل في الغيب الذي لايعلمه إلاّ الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾[2]. فهذه الصيغة تدل على الدوام والثبوت[3]، وقد ذكرت هنا لتناسب ذكر يوم القيامة والغيب، ويعدل عن هذه الصيغة إلى اخرى حين يتعلق الامر بعلمه المطلق الذي جاء على السنة الرسل في يوم القيامة وذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾[4]، أي انت وحدك (علام الغيوب) ((تعلمها علما تاما فكيف بما غاب عنا من احوال قومنا.... وهذا في موضع قولهم: انت اعلم، لكن هذا احسن ادبا، فانهم محو انفسهم من ديوان العلم بالكلية، لأن كل علم يتلاشى إذا نسب إلى علمه ويضمحل مهما قرن بصفته اواسمه))[5]، فضلا عن ان صيغة (فعال) - في غير ذات الله تعالى - تدل على الاستمرار والتكرار والمزاولة[6]، وتدل على الكثرة في الصفة إلى حد المبالغة.

وهكذا نجد في القرآن الكريم ان تصريف الالفاظ إلى صيغ مختلفة مع وحدة الاصل، يمثل جزءا من الإعجاز اللغوي، والذي لايحيط بدراسته مبحث أو رسالة أو كتاب.

القسم الثاني: تصريف المعنى في الدلالات المختلفة:

يقول الرماني: ((أمّا تصريف المعنى في الدلالات المختلفة فقد جاء في القرآن في غير قصة، منها قصة موسى عليه السلام، ذكرت في سورة الاعراف وفي طه والشعراء.... وغيرها لوجوه من الحكمة))[7].

(1) سورة البقرة: 28-29.
(2) سورة الانعام: 73.
(3) =: معاني الابنية في العربية /47.
(4) سورة المائدة: 109.
(5) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 338/6.
(6) =: معاني الابنية في العربية /109 - 110.
(7) ر / 101 - 102.

واذا كان القسم الاول يتعلق بمباحث الاشتقاق، فان هذا القسم يتعلق بالمعاني والتعبير عنها بعبارات متعددة، وقد اختار الرماني القصص القرآني مثلا لذلك، فقد ذكرت القصة في القرآن بعدة أساليب وفي عدة صور ولكنها في كل صورة ثابتة في مكانها متناسبة مع السياق والنظم الواردة فيه، مؤتلفة مع الغرض الذي سيقت من اجله السورة، وكان من اسباب ذلك تسلية النبي ﷺ وتثبيت فؤاده لما كان يلقى من الكفار ((فتذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله، وبذلك يختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الاحوال، والجميع حق لااشكال في صحته))[1].

ولم يكن الرماني اول من أشار إلى هذا الامر، فقد سبقه الجاحظ واطلق عليه مصطلح (الترداد)[2]، واشار ابن قتيبة إلى ذلك مستخدما مصطلح (التكرار)[3] في حين ان الرماني عدل عن هذه المصطلحات واثر مصطلح (التصريف) ولاشك ان لاختيار هذا المصطلح اسبابا منها:

1- ان مصطلح (التصريف) شامل لكلا القسمين اللذين تحدث عنهما الرماني، فالاول تصريف للمعنى في المعاني المختلفة عن طريق الاشتقاق، والثاني تصريف للمعنى في الفاظ وتراكيب مختلفة، ولفظة (التصريف) لاتختص بتكرار القصة فقط -وان أشار الرماني إلى ذلك -فكثير من المعاني والموضوعات تاتي في القرآن الكريم باساليب متنوعة، وكل ذلك من الإعجاز اللغوي. وقد أشار الجاحظ إلى ذلك[4].

2- ان الرماني لم يشا استخدام مصطلح التكرار -وهو يتحدث عن الإعجاز -لما لهذا المصطلح من دلالة على العجز والحشو الذي لايليق ان يوصف به كلام الله ﷻ.

3- ادرك الرماني ان ذكر القصة الواحدة في مواضع متعددة ليس تكرارا وانما هو تصريف للمعنى الواحد في صور مختلفة، ولابد لذلك من اسباب وفوائد، ذكر

(1) الموافقات في اصول الاحكام، للشاطبي: 284/3.
(2) =: البيان والتبيين: 105/1.
(3) =: تأويل مشكل القرآن /240.
(4) =: البيان والتبيين: 105/1.

الجاحظ بعضها وكذلك ابن قتيبة كما ذكرنا سابقا[1]، أمّا الرماني فيذكر فوائد اخرى لذلك، وهي:

أ - ((التصرف في البلاغة من غير نقصان عن اعلى مرتبة))[2]، فحين كان العرب اصحاب فصاحة وبيان، تحداهم القرآن، ولم يكن ذلك التحدي مما يدخل في دائرة الامور المستحيلة، فكان ايراد القصة الواحدة في مواضع متعددة من القرآن الكريم وبالفاظ وتراكيب مختلفة جزءا من هذا التحدي، ولكي لايقولوا ان القصة الواحدة جاءت مرة واحدة في القرآن الكريم فليات المسلمون بسورة من مثله[3]، لذلك انزلها الله في سور متعددة دفعا لحجتهم من كل وجه، ولم تات قصة يوسف عليه السلام إلاّ في سورة واحدة، حيث جاءت كاملة تثبت عجزهم، وكان النبي ﷺ يقول لهم، ان كان من تلقاء نفسي فافعلوا في قصة يوسف التي لم تتكرر مافعلت في سائر القصص[4]، فقصة يوسف جمعت كاملة متسلسلة متتابعة في سورة يوسف ولم تتكرر، وقد كان فيها دور المراة التي ظهرت بارزة بطبيعتها وانوثتها الطاغية، فليس من الخير تكرير مايثير الغرائز[5] ، فضلا عن الدروس البليغة التي تنوعت وانتشرت في اجزاء القصة من بدايتها حتى نهايتها.

ولم يكن تعدد المواضع التي تذكر فيها القصة الواحدة هو الامر المعجز فحسب، بل كان هذا التعدد من غير نقصان عن اعلى مرتبة من مراتب البلاغة لاسيما وان العرب يعلمون ان من الامور الصعبة ان ينشا الموضوع الواحد باساليب متعددة تكون كلها في البلاغة سواء، فكان ذكر القصة الواحدة بأساليب متعددة ابلغ في التحدي، ففيه ارخاء العنان للمتحدين[6].

(1) =: ص من هذه الرسالة.
(2) ر / 102.
(3) =: البرهان في علوم القرآن: 27/3.
(4) =: الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية /128.
(5) =: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، د. محمد محمود حجازي / 324.
(6) =: رسالة الرماني تحليل ونقد /141.

ب-((تمكين العبرة والموعظة))[1] وهو الهدف من القصص القرآني على نحو عام، إذ تتحدث هذه القصص عن اخبار واحوال الامم السابقة ممن بعث الله اليهم الرسل لدعوتهم، فامن من امن، وضل من ضل، فجاءت هذه القصص تحكي نهاياتهم وعذاب الله لهم جزاء بما فعلوا، ففيها الدروس البليغة والعبر الكثيرة، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾[2]

جـ- ((□ل الشبهة في المعجزة))[3] وتتعلق هذه الفائدة بالفائدة الاولى، ويوضح الرماني ذلك، فيقسم الاشياء من□يث المعارضة على قسمين:

الاول: ما لا يدخل ت□ت الممكن في المعاضة.

الثاني: مايدخل ت□ت الممكن.

ويمثل للقسم الاول بالقول: ((كالت□دي بعدد يضرب في عدد فيكون منه خمسة وعشرون غير خمسة في خمسة، وكذاك الت□دي في قسمة المقادير انه لايخلو مقداران من ان يكون □دهما ازيد من الآخر أو انقص أو مساويا، فاذا قال قائل: هاتوا مثل هذه القسمة في غير المقادير، قلنا لايلزم ذلك لانه لايدخل ت□ت الممكن))[4].

أمّا القسم الثاني فهو مايدخل ت□ت الممكن ويصح ان يدخل في دائرة المعارضة، فلم تكن القصة القرآنية مما لايدخل ت□ت الممكن في المعارضة ولو كانت كذلك لما كان ذلك ت□ديا أو □جاجا، بل كانت -في ذكرها باساليب متعددة ومواضع مختلفة وفي اعلى طبقات البلاغة- مما يدخل ت□ت الممكن في المعارضة ليكون ت□ديا والزاما للـ□جة وارخاء للعنان ليثبت العجز ((لأن الذي قدر على ان ياتي بسورة ال عمران والذي قدر على المائدة هو الذي قدر على الانعام،وهو الله ﷻ الذي يقدر ان ياتي بما شاء من مثل القرآن، فظهور الـ□جاج على الكفار بان اتى في المعنى الوا□د بالدلالات المختلفة فيما هو من البلاغة في اعلى طبقة))[5].

(1) ر / 102.
(2) سورة يوسف: من 111.
(3) ر / 102.
(4) ر / 102.
(5) ر / 102.

ولو نظرنا إلى ذلك من ناحية اخرى لوجدنا ان من الإعجاز أيضاً ان البيان القرآني لم يجمع ماتكرر من لقطات القصص القرآني في سورة واحدة بل توزعت في سور متعددة لكي ليكون ذلك من دواعي الملل والسامة، ولذلك اثر الرماني لفظة (تصريف) على (تكرار).

واذا كان الرماني قد ذكر ان التحدي بالقران هو من قبيل التحدي بالممكن، ورجح القول بالاعجاز البلاغي، فان ذلك لايتعارض مع قوله بالصرفة، لاسيما وانه حين تحدث عن الصرفة أشار إلى انها مما كان يعتمد عليه بعض اهل العلم، واشار إلى ان ذلك امر خارج عن العادة، ويمكن ان يكون الرماني من القائلين بالصرفة لأن رؤوس المعتزلة قد قالوا بها فلم يشا ان يخرج عليهم لذلك ذكرها دون تعليق ونسبها إلى بعض اهل العلم وكانه يريد التبرا منها[1].

وقد تناول العلماء بعد الرماني هذا النوع من التصريف بالدرس والتفصيل وذكروا لذلك فوائد واسباب كثيرة تدخل في الغالب تحت ماذكره الرماني، من ذلك ماذكره الزركشي[2]، والسيوطي[3]، وغيرهما.

وتناولت بعض الدراسات الحديثة[4] هذه المسالة واكدت ماذهب إليه الرماني، إذ ((ليس في القصص القرآني ذلك التكرار المطلق الذي يخيل لبعض من يقراون القرآن، بلا تدقيق ولا امعان))[5]، بل هو تصريف للمعنى في دلالات مختلفة لاغراض شتى تصب في مجال تثبيت العقيدة وترسيخها في افئدة المومنين من خلال عرض قصص الامم السابقة وبيان احوالها.

نقف بعد ذلك عند قصة من قصص القرآن الكريم، نتدبر معانيها ونتامل في نظمها وتراكيبها المختلفة في بعض المواضع التي ذكرت فيها لنستشف من خلال ذلك جانبا من الإعجاز البلاغي في باب التصريف، ولنقف على الحقيقة، اهي تكرار ام لا؟

(1) =: تطور دراسات إعجاز القرآن /272 -273.
(2) =: البرهان في علوم القرآن: 26/3.
(3) =: الاتقان في علوم القرآن: 98/2.
(4) منها: الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية /141، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم /325 و 385، التعبير القرآني /251، من الاشباه والنظائر في القرآن الكريم، عبد العزيز سيد الاهل /10، المعاني الثانية في الأسلوب القرآني /443، إعجاز القرآن البياني /306.
(5) التصوير الفني في القرآن /132.

قصة شعيب عليه السلام، ذكرت في سورة الاعراف، وسورة هود ، وسورة الشعراء، وسورة العنكبوت. وفي سور اخرى اشارات إليها أيضاً، إلاّ ان الكتاب سيعتمد ماذكر في هذه السور الاربعة.

قال تعالى في سورة الاعراف[1]: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وقال تعالى في سورة هود[2]: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ

(1) 85 -93.
(2) 84 - 95.

لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

وقال تعالى في سورة الشعراء[1]: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾ .

وقال تعالى في سورة العنكبوت[2]: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

بعث الله شعيبا إلى اهل مدين ((وهم من سلالة مدين ابن ابراهيم، ومدين تطلق

(1) 176 - 191.
(2) 36 - 37.

على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز))[1].

وكان قوم شعيب اهل كفر بالله وبخس للناس وتطفيف في المكاييل والموازين، وكان الله قد وسع لهم في الرزق وبسط لهم في العيش، فبعث اليهم شعيبا يدعوهم لعبادة الخالق ﷻ وترك ماكانوا يعبدون، ويدعوهم إلى العدل في الكيل والميزان ومعاملة الناس، وعدم الافساد في الارض والانتهاء عن الجلوس في الطرقات وصد الناس عن سبيل الله، ويذكرهم بنعم الله تعالى ويحذرهم عقابه، وقد عرف شعيب بانه خطيب الانبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته[2].

وقد ذكرت قصة شعيب في هذه السور، لكننا نجد في كل سورة الفاظا وتراكيب واجزاء حوار تختلف عن الاخرى، فضلا عن الزيادة في بعضها والنقصان في البعض الآخر.

بداية القصة تشابهت في سور ثلاث: الاعراف وهود والعنكبوت، لكنها اختلفت في سورة الشعراء، إذ بدات بقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [3]، فلم يقل ههنا: (اخوهم شعيب)، وذلك لانهم نسبوا إلى عبادة الايكة وهي من الشجر الملتف كانوا قد عبدوها، فلم يقل (اخوهم) وانما (إذ قال لهم شعيب) فقطع نسب الاخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه وقد امرهم شعيب بايفاء الكيل والميزان كما في السور الاخرى فدل ذلك على انهما امة واحدة[4].

وثمة ملمح آخر يتبع ذلك، ففي السور الثلاث قال شعيب: (ياقوم)، أمّا في سورة الشعراء فلم يقل ذلك وكانه تبرا منهم، وليتناسب ذلك مع وصفهم بالاشراك وتنزيه شعيب عنه.

وفي سورة العنكبوت استخدمت الفاء في (فقال ياقوم) وهي ملائمة للايجاز الذي عرضت فيه القصة.

(1) تفسير القرآن العظيم: 231/2.
(2) =: م ن: 231/2.
(3) سورة الشعراء: 176.
(4) =: تفسير القرآن العظيم: 345/3.

دعاهم شعيب اول دعوته إلى عبادة الله تعالى في السور الثلاث (قال ياقوم اعبدوا الله) أمّا في سورة الشعراء فقال: (الا تتقون)، وكرر ذلك فقال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [1]، وقال أيضاً: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [2]، وذلك لأن صفتهم في هذه السورة هي الاشراك، فوجب تكرار الامر بالتقوى، فهم قد عبدوا، ولكنهم اشركوا فدعاهم إلى تقوى الله لأن من شان التقوى ان تجعلهم يقلعون عن عبادة الايكة.

أمّا قوله: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [3]، فلم يرد في السور الاخرى، وقد ذكر في قصص الانبياء الاخرين كقصة صالح عليه السلام وقصة موسى عليه السلام[4]، فناسب ذكر ذلك في هذه السورة فقط.

وبعد دعوته لهم بعبادة الله، دعاهم بايفاء الكيل والميزان، وهنا نلحظ اللمحة المعجزة في التركيب القرآني لهذا المعنى، وتعدد أساليب التعبير عن المعنى الواحد، ففي سورة الاعراف: (فاوفوا الكيل والميزان) وفي سورة هود: (اوفوا المكيال والميزان بالقسط) وفي سورة الشعراء: (اوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم) والقسطاس هو الميزان.

ففي سورة الاعراف استخدم المصدر (الكيل) وفي سورة هود استخدم (المكيال) وهو على وزن (مفعال) الذي يدل على الاداة أو الآلة[5]، وعدل عن لفظه (الميزان) إلى (القسطاس) في سورة الشعراء، فتعددت التعبيرات عن المعنى الواحد اعجازا لمن تحداهم القرآن، وكل ماجاء به في اعلى مرتبة من البلاغة، ولاشك ان ماورد في سورة الشعراء يوحي بانهم مع اشراكهم بالغوا بالتطفيف، مما دعاه إلى الامر (اوفوا) والنهي (ولا تكونوا من المخسرين) والامر (وزنوا) والتوكيد على العدل (المستقيم). وثمة ملمح يرتبط بهذا الاختلاف، ذلك انه لما ذكر (الكيل والميزان) قال بعدها (لاتفسدوا في الارض)، ولما ذكر (المكيال والميزان والقسطاس) قال: (لاتعثوا في الارض مفسدين) ويوحي ذلك بتناسب عظيم، فالغش في (المكيال والميزان والقسطاس) اكبر من الغش في (الكيل) الذي يمثل

(1) سورة الشعراء: 180.
(2) سورة الشعراء: 185.
(3) سورة الاعراف: من 86.
(4) =: س ن: 73، 105.
(5) =: معاني الابنية في العربية / 126.

عملية الوزن اوتطفيف الشي الموزون،أمّا إذا كان الغش ثابتا في الة الوزن فيستوجب ذلك النهي عنه بصيغة تناسبه وهي (لاتعثوا في الارض مفسدين) ومن التناسب أيضاً ان قال بعد ذلك في سورة الاعراف: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [1] ويشتمل ذلك على عموم مامن شانه ان يؤدي إلى الافساد في الارض وقال في سورة هود: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [2] وهو خاص بالربح الحلال من البيع والشراء لانهم عثوا في الارض فسادا لاسيما في المكيال والميزان.

ونهاهم في سورة الاعراف عن الجلوس في الطرقات والصد عن سبيل الله، وذكرهم بنعمة الله، ولم يذكر ذلك في السور الثلاث هود والشعراء والعنكبوت.

ومما تعددت الأساليب في التعبير عنه هو التذكير بمن سبقهم من الامم السابقة وهلاكها، فقال في سورة الاعراف: ﴿ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [3] وقال في سورة هود: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [4]، وقال في سورة الشعراء: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [5]، وههنا تناسب مع الاصرار على الاشراك المتوارث في كل القصص ومع حال مشركي مشركي قريش، وفي ذلك تسلية وتثبيت للنبي ﷺ لاسيما وانه خوطب في بدايتها بقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [6]، وتبين القصة في سورتي الاعراف وهود أن طائفة منهم قد امنت بشعيب وطائفة لم تؤمن وفي ذلك أيضاً تثبيت للنبي ﷺ وبيان لحال الامم السابقة والرسل الاخرين.

ومما يلحظ أيضاً ان التعبير القرآني استخدم في سورة الاعراف (فاصبروا) على سبيل التهديد والوعيد، أمّا في سورة هود فقال (ارتقبوا)، فكان ذلك دقة في التناسب لاسيما ان الترقب هو لعذاب المشركين، أمّا الصبر فهو للحكم بين الطائفتين من الله تعالى (وهو خير الحاكمين)، وزاد في سورة هود تهديدا آخر فقال: (وياقوم اعملوا على مكانتكم اني عامل) ولم يذكر كل ذلك في سورة الشعراء.

---

(1) سورة الاعراف: من 85.
(2) سورة هود: من 86.
(3) سورة الاعراف: من 86.
(4) سورة هود: 89.
(5) سورة الشعراء: من 185.
(6) س ن: 3.

وفي حوارهم لشعيب نجد روعة التناسب أيضاً، ففي سورة الاعراف وصفهم التعبير القرآني بالتكبر: (قال الملا الذين استكبروا من قومه) وتناسب ذلك مع قولهم الذي يوحي بهذا التكبر: (لنخرجنك ياشعيب والذين امنوا معك)، بهذا التوكيد وهذه القوة التي تدل على الاصرار على الفعل، أمّا في سورة هود فكان قولهم من سبيل المحاجة والمعاندة بعد نفاد حججهم ورؤية البراهين وصدقها فقالوا: (ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك)، فقوة قولهم هنا لم تكن بقوة ماذكر في سورة الاعراف بل القوة هنا لشعيب ورهطه، ودليل ذلك قوله: (اعملوا على مكانتكم اني عامل)، وقد امر النبي ﷺ ان يقول ذلك أيضاً[1]، ودليل ضعفهم انهم هناك قالوا (لنخرجنك) وهنا قالوا (لولا رهطك)، وناسب تلك القوة التي اوحى بها التعبير القرآني ان يقول لهم شعيب في سورة الاعراف (فاصبروا) وفي سورة هود (فارتقبوا) وفي ذلك مايوحي بهذه القوة وثبات الموقف.

أمّا ماقاله شعيب في حواره معهم في سورة الشعراء فجاء مناسبا لما وجهوه إليه إذ قالوا: (إنما انت من المسحرين)، (وان نظنك لمن الكاذبين)، (ان كنت من الصادقين)، فلم يقل لهم (فاصبروا) أو (ارتقبوا) وانما قال: (ربي اعلم بما تعملون) ذلك ان السحر والكذب والصدق هي من الامور المعنوية التي قد لاتظهر حقيقتها، وانما العالم بها وبكل لما كانوا يعملون ويتهمون، هو الله ﷻ، فضلا عن ان ذكر هذه الاتهامات لشعيب وصبره عليهم ، وعذابهم بعد ذلك، هو تثبيت للنبي ﷺ وتذكير لمشركي قريش بعاقبة ماكانوا يتهمون النبي ﷺ به من السحر والكذب والجنون وغير ذلك، ونصل إلى هلاك قوم شعيب، ففي سورة الاعراف ياتي العذاب مباشرة لانهم قالوا لمن امن به: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [2] فعرض التعبير القرآني عذابهم دون مقدمة لفظية، في حين ان المقدمة في سورة هود هي قوله تعالى: (ولما جاء امرنا) وفي سورة الشعراء (فكذبوا).

أمّا التناسب في ذلك، فانه لما توقعوا الخسارة لاتباع شعيب، لم يكن لعذابهم مقدمة لفظية، لأن التعبير القرآني اراد ان يظهر فساد قولهم وبيان الطرف الخاسر منهم، لذلك قال بعد ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [3] ويتناسب ذلك أيضاً مع قوله تعالى:

(1) =: سورة هود: 121.
(2) سورة الاعراف: من 91.
(3) س ن: من 92.

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [1] أمّا قوله تعالى في سورة هود: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ [2] فتناسب مع التهديد والوعيد الذي جاء على لسان شعيب في قوله: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [3] فضلا عن ان قوله تعالى: (ولما جاء امرنا) يتناسب مع ماذكر في هذه السورة في قصة نوح[4] ، وقصة هود[5]، وقصة صالح[6]، وقصة لوط[7].

أمّا في سورة الشعراء فكانت المقدمة اللفظية لعذابهم قوله تعالى (فكذبوه) ويتناسب ذلك مع السياق الذي عرض اتهامهم لشعيب بالكذب وعدم الصدق وغير ذلك، فاختار التعبير القرآني (الكذب) صفة لهم ولفعلهم، فضلا عن سرعة العذاب الذي توحي به الفاء المتكررة

(فكذبوه فاخذهم) مما يناسب تحديهم له ولصدقه في قولهم: (فاسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين).

أمّا عذابهم فيذكره التعبير القرآني في سور ثلاث تختلف صيغة ولا تختلف مضمونا، بل تكمل احداهن الاخرى، فقد جعل الله عقوبتهم ان اصابهم حر عظيم مدة سبعة ايام لايكنهم منه شيء ثم اقبلت اليهم سحابة اظلتهم فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا تحتها ارسل الله تعالى اليهم منها شررا من نار، ولهبا ووهجا عظيما، ورجفت بهم الارض، وجاءتهم صيحة عظيمة ازهقت ارواحهم[8]، فتوزع هذا العذاب على السور الثلاث، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [9]، وقال: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [10]، وقال: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ ﴾ [11]،

(1) س ن: 9.
(2) سورة هود: من 94.
(3) سورة هود: 93.
(4) س ن : 40.
(5) س ن: 58.
(6) س ن: 66.
(7) س ن: 82.
(8) =: تفسير القرآن العظيم: 346/3.
(9) سورة الاعراف: 91.
(10) سورة هود: من 94.
(11) سورة الشعراء: من 189.

واللمحة المعجزة في التناسب لهذا التوزيع الدقيق هي ان التعبير ا لقراني ذكر في كل سياق ماينا‌سبه، ففي سورة الاعراف لما قالوا: (لنخرجنك ياشعيب والذين امنوا معك من قريتنا) ناسب ان يذكر فيها عذابهم بالرجفة، إذ رجفت بهم الارض التي ظلموا بها وارادوا اخراج نبيهم منها.

وفي سورة هود لما اساءوا الادب في مقالتهم: (اصلاتك تامرك)؟ على سبيل التهكم والسخرية، جاءت الصيحة فاسكتتهم واخمدتهم.

وفي سورة الشعراء لما قالوا: (فاسقط علينا كسفا من السماء) اخبر انه اخذهم (عذاب يوم الظلة) وكل ذلك من الاسرار الدقيقة[1]، وقد اجتمع عليهم كل ذلك.

ومن الدقائق في التعبيرات التي صورت عذابهم، الافراد والجمع في لفظ (الدار)، ففي سورة الاعراف حين ذكر الرجفة قال: (فاصبحوا في دارهم) وفي سورة هود حين ذكر الصيحة قال: (فاصبحوا في ديارهم) فافرد في الاولى، وجمع في الثانية ((لأن الصيحة كانت من السماء، فبلوغها اكثر وابلغ من الزلزلة، فاتصل كل واحد بما هو لائق به))[2]، فضلا عن ان في افراد الدار مع الرجفة إيحاء بالقوة والقدرة العظيمة لله ﷻ، فالصورة تجلي عذاب القوم وكانهم في بقعة دار واحدة، زلزلتها من الامور اليسيرة على الله ﷻ، وكذلك الصيحة وشمولها لكل ديارهم، فيه دلالة على القدرة العظيمة.

وثمة ملمح آخر في (اخذتهم) وفي (اخذت الذين ظلموا) فالاولى بالضمير (هم) والاخرى بذكرهم بصفة (الظلم)، ذلك ان الصيحة لما كانت عامة شاملة فانها عذاب لهولاء فقط، وليس لكل من سمعها، ولذلك سبقها ذكر نجاة شعيب والذين امنوا معه، أمّا الرجفة فكانت عذابا لهم بالبقعة التي اجتمعوا عليها حينئذ وكذلك (عذاب يوم الظلة)، لذلك لم يذكر التعبير القرآني نجاة شعيب والذين امنوا معه لأن العذاب مما لايقع إلاّ على هولاء المشركين.

وهكذا تعرض القصة ولا نجد في ذلك تكرارا، بل هي حلقات ومشاهد تتوزع بدقة وتناسب معجز على السور، وفي ذلك تسلية للرسول ﷺ وتثبيت في تبليغ رسالته لما كان يلقى من محاربة المشركين، ويتناسب ماورد من ذكر للقصص في سورة الاعراف مع قوله

(1) =: تفسير القرآن العظيم: 232/2، 458.
(2) اسرار التكرار في القرآن، للكرماني /85 و 109.

تعالى في بداية السورة: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1]، وقال في سورة هود: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2]، وهو الغرض الآخر من هذه القصص، الذكرى للمومنين، إذ يعرض التعبير القرآني فيها عواقب اعمال الكافرين من الامم السابقة، فقد عرض في قصة شعيب عاقبة الكفر، وعاقبة غش الكيل والميزان، وعاقبة بخس الناس اشياءهم، وعاقبة الفساد في الارض، وعاقبة الصد عن سبيل الله، وعاقبة تكذيب المرسلين،وعاقبة نسيان كتاب الله واتخاذه ظهريا، وعاقبة عدم الارتداع بالانذار بالعذاب، فضلا عن ان عرض اشراك الاقوام الاخرى في تلك القصص يتناسب وحال اشراك مشركي قريش وحال الرسول ﷺ في دعوته لهم.

لذلك يمكن القول ان الرماني كان مصيبا في تسمية ذلك (تصريفا)وليس (تكرارا) لأن المعنى قد صرف في دلالات مختلفة تفصح كل منها في موضعها عن قصد معين، وتتناسب مع ماوردت فيه من سياق لفظي وحالي، وفي ذلك إعجاز لايقبل الجدل والمعارضة، ذلك ان القصة الواحدة في ذكرها في اكثر من موضع جاءت في اعلى مرتبة من البلاغة، وهذا ماراد الرماني الإشارة إليه في (التصريف) بوصفه وجها من وجوه الإعجاز البلاغي.

(1) سورة الاعراف: 2.
(2) سورة هود: 120.